الموت يحتضر

الحياة دروس، ولكنّها على الأغلب دروس صعبة، أثرها بليغ وآثارها باقية. لكننا قلّما نتعلّم وإذا تعلّمنا سرعان ما ننسى.

اليوم توفي أحد أقاربنا، أحد أصدقائنا. أخبرتني زوجتي بوفاته عند استيقاظي من النوم. وقع عليّ الخبر وقوع الصّاعقة. تغيّر كل برنامجي اليومي. كنت أخطط للخروج لممارسة رياضة المشي وتحريك جسمي قليلًا. تغيّر مزاجي وتعكّر. لم أخرج من البيت، شربت قهوة الصّباح بدون رغبة، وأكلت ما يسدّ جوعي بدون طعم أو لذّة. ما أسرع أن تتغيّر برامجنا جرّاء تغيّر روتين حياتنا، ما بالك إذا كان سبب التّغيير هو الموت. الموت صادم، قاسٍ لا يرحم أحدًا. أشخاص عرفناهم طوال حياتنا، عشنا معهم وضحكنا سويّةً. وفجأة وبدون سابق انذار ذهبوا بلا عودة.

كان من الواجب أن أذهب إلى الجنازة، فاليوم يوم جمعة، يوم عطلة. ذهبت إلى المقبرة بصحبة أولادي الذين تعوّدوا أن يكونوا سبّاقين إلى تأدية الواجب. لم أحاول حثّهم على ذلك، فهم معتادون.

وقفت خارج المقبرة، لم أدخلها. بِتُّ أخاف دخولها فهي مليئة بالمعارف والأصدقاء والأقارب. لقد احتضنت الكثير على مدار السنين. فلا أحد يفلت من هذا المصير المحتوم.

تبادلت التحيّة مع معارفي الكثر وأصدقائي الذين أتوا لحضور الجنازة. لم أرَ حزنًا، لم أرَ خوفًا، لم ألحظ هيبة الموت ورهبته. وقف النّاس خارج المقبرة جماعات جماعات، وتبادلوا التحيّة وأطراف الحديث. لم يلتفتوا إلى المقبرة، ولم يروا الميت محمولًا على

أكتاف الشّباب. وقف النّاس خارج المقبرة كأنّ الأمر لا يعنيهم. اقتصر الحزن على أولاد الفقيد وأخوته، وأمّا الباقونَ فقد استمرّوا بأحاديثهم العامّة.

هل أصبح النّاس يستهترون بالموت؟! هل زال الخوف منهم؟! لقد كان الموت يشغل بال النّاس على مرّ السّنين ويصيبهم بالرّعب والخوف أينما ذُكر. ما الذي تغير؟! يتحدث الجميع على أنّ الموت عبرة، لماذا لا نعتبر؟! لماذا لا نتأثّر؟! هل نعتقد أننا محصّنون من الموت؟! انه لن يصلنا؟!

اقتربت من إحدى المجموعات وكان موضوع النّقاش الحرب الروسيّة الأوكرانيّة.

سمعتهم يحللون الخطوات التي اتخذها الطرفان لإنهاء الحرب لصالح أحد الطرفين. لم يذكروا الفقيد ولم يعدّدوا مناقبه وحسناته، بل استمرّوا في حديثهم العام، وعندما حان موعد المغادرة، قال أحدهم لصديقه: "سنكمل حديثنا مساءً في بيت العزاء".

هكذا أصبح حالنا عند الموت. أصبح الموت مناسبة للالتقاء بالأشخاص الذين لم نرهم منذ زمن طويل، أصبح ملتقى للأقارب الذين لم يلتقوا إلّا في المناسبات الحزينة، إلّا في الموت. أصبح الموت مناسبة اجتماعيّة لها فوائدها وحسناتها في التّقارب بين النّاس وتأليف القلوب.

تختلف الآراء بالنّسبة لوضع الميت بعد وفاته، فالبعض يقولون إنه يُشاهد ويسمع ما يحدث حوله، وقد تعدّدت الأقاويل بين النّاس، فقد علمّونا سابقًا أنّ الميّت يتألم لسماع عويل النّساء وبكائهن، وأنّه يتقلّب في قبره بعدم ارتياح. نظريات الموت كثيرة في ثقافتنا، منها ما يأخذها النّاس على محمل الجدّ ومنها ما يأخذونه مزاحًا وهزلًا.

مهما كان الأمر فإنّ موضوع الموت موضوع جدّي ويخيف النّاس وخاصّة عند تقدّمنا بالسّن حيث تبدأ الأيام بالتّسارع والعمر بالتّناقص. هناك من يقوم بتحضير نفسه للموت، وفي بعض الثّقافات يقوم الميت بشراء قبره، وتهيئته، وشراء الكفن، والتّابوت. وفي بعض الثّقافات تروّج تجارة الموت من مراسيم، واحتفالات، وأكل، ووجبات.

أمّا بالنّسبة لنا فلا يخلو الأمر من التّرتيبات التي أصبحت تجارة بحتة ومربحة أيضًا. لن أتطرق إلى هذه التّرتيبات والعادات لكنني أعتقد أنّها زادت من تكاليف الموت وأصبحت عِبئًا على العائلة. أذكر عندما كنت صغيرًا أنّ الجيران كانوا يتسارعون صباحًا لإحضار وجبة الفطور لأهل الفقيد. يفعلون ذلك بسرور ورغبة وطيبة نفس. ما زال جزء من هذه العادات موجودًا عندنا رغم مرور السّنين والتغيّرات المتسارعة في مجتمعنا.

ماذا بالنسبة للأصدقاء الذين تواعدوا على الالتقاء مساءً في بيت العزاء. بالفعل رأيتهم حاضرين. وقد وفوا بوعدهم. توقّعت أن أراهم يجلسون منكمشين لا ينبسون ببنت شفة، أن أراهم واجمين ينظرون حولهم مطرقين من رهبة الموت. للأسف خاب ظنّي. العكس هو الصّحيح فقد تحوّلت بيوت العزاء إلى أماكن "للدواوين" وتبادل الحديث ومُلتقى الأصدقاء والمعارف، مُلتقى للأكل والشّرب والتّسلية، يعني "أكل ومرعة وقلة صنعة" والأكل مجاني بدون مقابل، وأكثر من ذلك فأنت تحصل على ثواب وحسنات وتقوم بقراءة الفاتحة وبعض السّور القرآنيّة على روح الفقيد كلّما ذكره أحد الشّيوخ الحاضرين في بيت العزاء.

هل يمكننا أن ننهي حديثنا بطرفة؟! هل من اللائق أن نذكر الطّرائف في هذا الموقف المريع؟!

قــرّرت عــدم إدراج طرفــة في نهايــة المدوّنــة وذلــك لهــول الموقــف وجديّتــه، لكنــني أود أن ألفــت انتبــاهكم وأقــول أنّــه إذا مِــتُّ خــلال الخمســة عشــر ســنة القادمــة فــلا تقولــوا إنــني قد أحسست بقرب أجلي وأنني تنبأت بموتي قبل أوانه.

أطال الله بعمري وعمركم.